

(سورة الزخرف)

{ حم } { وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ }

{ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }

{ وَإِنَّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِّي حَكِيمٌ }

أقسم بأول الوجود وهو الحق وآخره وهو محمد وما أجل قسمًا بما هو أصل الكل وكماله، ولهذا كانت الشهادة بهما أساس الإسلام وعماد الإيمان والجمع بينهما هو المذهب الحق والملة القويمة. فإنَّ أحدية الوجود والتأثير هو الجبر وإثبات التفصيل في الوجود والتأثير هو القدر، والجمع بينهما بقولنا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، هو الصراط المستقيم، والدين المتين. أو بما يناسب الكتاب وهو اللوح

والقلم لقوله تعالى: { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } [القلم، الآية: ١]

وقد يكنى عن الكلمة بآخرها كما يكنى عنها بأولها. فعلى الوجه الأول يمكن أن يوؤل الكتاب بنفس محمد لكونه مبيناً للحق جمعاً وتفصيلاً وكونه منزلاً من عند الله { قرآنًا } أي: جامعاً لجميع تفاصيل الوجود، حاصراً للصفات الإلهية والمراتب الوجودية والكمالية { عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } ما نخاطبكم به.

{ وَإِنَّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ } أي: أصل الوجود في الرتبة الأولى وأول نقطة الوجود الإضافي الممتاز بالتعين الأول عن الوجود المطلق التالي للهوية المحضة المشار إليه بقوله: { لدينا لعي { رفيع القدر بحيث لا رفعة وراءها { حكيمة } ذو الحكمة إذ به ظهرت صور الأشياء وحققها أعيانها وصفاتها وترتيب الموجودات ونظامها على ما هي عليه. وأما على الوجه الثاني فلا يستقيم هذا التأويل، بل هو القرآن المبين للتوحيد والتفصيل الدال عليهما، المقسم به إجمالاً { وإنه في أُمَّ الْكِتَابِ } أي: الروح الأعظم المشتتم على كل العلوم بل كل الأشياء لدينا قريباً منا أقرب من سائر العلوم الحاصلة في مراتب التنزلات. فإن العلم اللدني هو الذي أنتقش في الروح الذي هو أول الأرواح قبل تنزله في المراتب، وكون القرآن ذا الحكمة كونه مشتملاً على الحكمة النظرية المفيدة للاعتقادات الحقّة من التوحيد والنبوة وبيان أحوال المعاد وأمثالها، فالحكمة العملية من بيان أحكام أفعال المكلفين كالشرائع وكيفية السلوك في المراتب وأحوال المكاسب والمواهب.

{ أَفَنضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ }

{ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ }

{ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }

{ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ }

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ }

{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }

{ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ }

{ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَلْفِكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ }

{ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا }

{ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ }

{ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ }

{ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ }

{ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ }

{ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُّسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ }

{ أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْإِحْلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْإِخْصَامِ غَيْرُ مُّبِينٍ }

{ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِاثًا أَشْهَادًا خَلَقَهُمْ }

{ سَتَكْتَبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ }

{ أفنضرب عنكم الذكر } أي: أنهملكم ونصرف الذكر عنكم لإسرافكم وإما كانت

الحاجة إلى الذكر للإسراف، إذ لو كانوا على السيرة العادلة والطريقة الوسطى لما

احتيج إلى التذكير بل التذكير يجب عند الإفراط والتفريط، ولهذا بعث الأنبياء

في زمان الفترة. قال الله تعالى:

{ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ } [البقرة، الآية: ٢١٣].

{ وجعلوا له من عباده جزء } أي: اعترفوا بأنه خالق السموات والأرض ومبدعهما

وفاطرهما وقد جسموه وجزؤوه بإثبات الولد له الذي هو بعض من الوالد مماثل له في النوع لكونهم ظاهريين جسمانيين لا يتجاوزون عن رتبة الحس والخيال ولا يتجردون عن ملابس الجسمانيات، فيدركون الحقائق المجردة والذوات المقدسة فضلاً عن ذوات الله تعالى، فكل ما تصوروا وتخيلوا كان شيئاً جسمانياً ولهذا كذبوا الأنبياء في إثبات الآخرة والبعث والنشور وكل ما يتعلق بالمعاد، إذ لا يتعدى إدراكهم الحياة الدنيا وعقولهم المحجوبة عن نور الهداية أمور المعاش فلا مناسبة أصلاً بين ذواتهم وذوات الأنبياء إلا في ظاهر البشرية، فلا حاجة إلى ما وراءها. ولما سمعوا من أسلافهم قول الأوائل من الحكماء في إثبات النفوس الملكية وتأنيثهم إياها إما باعتبار اللفظ، وإما باعتبار تأثرها وانفعالها عن الأرواح المقدسة العقلية مع وصفهم إياها بالقرب من الحضرة الإلهية توهموا أنوثتها في الحقيقة التي هي بإزاء الذكورة في الحيوان مع اختصاصها بالله فجعلوها بنات، وقلما يعتقدها العامي إلا صور إنسية لطيفة في غاية الحسن.

{ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ مَّا لَكُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ

إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ }

{ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ }

{ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ }

{ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا

وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ }

{ قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ

بِهِ كَافِرُونَ } { فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ }

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ }

{ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ }

{ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }

{ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ }

{ وَكَمَا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ }
 { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ }
 { أَهْمُ يَفْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا
 وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }
 { وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
 لِيُوتِيَهُمُ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ }
 { وَلِيُوتِيَهُمُ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكِنُونَ }

{ وَزُخْرَفًا وَإِن كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ }
 { وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ }
 { وقالوا لو شاء الرَّحْمَنُ ما عَبَدناهم } لما سمعوا من الأنبياء تعليق الأشياء
 بمشيئة الله تعالى افتراضوه وجعلوه ذريعة في الإنكار، وقالوا ذلك لا عن علم
 وإيقان بل على سبيل العناد والإفحام، ولهذا ردَّهم الله تعالى بقوله:
 { ما لَهُمُ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ } إذ لو علموا ذلك لكانوا موحدين لا ينسبون التأثير
 إلا إلى الله فلا يسعهم إلا عبادته دون غيره إذ لا يرون حينئذٍ لغيره نفعاً ولا ضرراً
 { إن هم إلا يخرصون } لتكذيبهم أنفسهم في هذا القول بالفعل حين عظموهم
 وخافوهم وخوفوا أنبياءهم من بطشهم كما قال قوم هود:

{ إِن نُّقُولُ إِلَّا أَعْرَاكَ بِعَضِّ أَلْهَتِنَا بِسُوءِ }

[هود، الآية: ٥٤]. ولما خوفوا إبراهيم عليه السلام كيدهم أجاب بقوله:

{ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا }

[الأعراف، الآية: ٨٠] إلى قوله: { وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُم }

[الأعراف، الآية: ٨١] وقالوا لولا نزل هذا القرآن { إلى آخره، لما لم يكونوا أهل
 معنى ولا حظ لهم إلا من الصورة لم يتصوروا في رسول الله صلى الله عليه
 وسلم شيئاً يعظمونه به إذ لا مال له ولا حشمة ولا جاه عندهم، وعظم في

أعينهم الوليد بن المغيرة وأضرابه كأبي مسعود الثقفي وغيره لمكان حشمتهم ومالهم وخدمهم، فاستخفوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: لا يناسب حاله اصفاء الله إياه وكرامته عنده، ولو كان هذا القرآن من عند الله لاختار له رجلاً عظيماً كالوليد وأبي مسعود فأنزل عليه لتناسب حاله عظمة الله، فردّهم الله لأنهم ليسوا بقاسمي رحمة الدين والهداية التي لا حظ لهم منها ولا معرفة لهم بها، بل ليسوا بقاسمي ما هم يعرفونه ويتصرفون فيه من المعيشة والحطام الدنيوي الذي يتهاكون على كسبه ولا يقصدون إلا إياه، فكيف بما لم يشموا عرفه ولم يعرفوا حاله.

{ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً { قرىء: يعش بضم الشين وفتحها، والفرق أن عشا يستعمل إذا نظر نظر العشي لعارض أو متعمداً من غير آفة في بصره، وعشي إذا أيف بصره. فعلى الأول معناه: ومن كان له استعداد صاف وفطرة سليمة لإدراك ذكر الرحمن أي: القرآن النازل من عنده وفهم معناه وعلم كونه حقاً فتعامى عنه لغرض دنيوي وبغى وحسد أو لم يفهمه ولم يعلم حقيقته لاحتجابه بالغواشي الطبيعية واشتغاله باللذات الحسيّة عنه، أو لاغتراره بدينه وما هو عليه من اعتقاده ومذهبه الباطل نقيض له شيطاناً جنياً فيغويه بالتسويل والتزيين لما انهمك فيه من اللذات وحرص عليه من الزخارف أو بالشبه والأباطيل المغوية لما اعتكف عليه بهواه من دينه، أو إنسياً يغويه ويشاركه في أمره وبعاجسه في طريقه ويبعده عن الحق.

وعلى الثاني معناه: ومن أيف استعداده في الأصل وشقي في الازل بعمى القلب عن إدراك حقائق الذكر وقصر عن فهم معناه نقيض له شيطاناً من نفسه أو من جنسه يقارنه في ضلالته وغوايته.

{ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ {
 { حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ لِيَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ {
 { وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنْكُم فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ {
 { أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْأُصْمَ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {
 { فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ {

{ أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ }
 { فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }
 { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ }
 { وَسْئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ
 الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا
 إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ }
 { فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ }
 { وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا }
 { وَأَخَذْنَا هُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }
 { وَقَالُوا يَايَهَّ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ }
 { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ }
 { وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ
 وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ }
 { أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ }
 { فَلَوْلَا أَلْقِي عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُّقْتَرِنِينَ }
 { فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ }
 { فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ }
 { فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ }
 { وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُون }
 { وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ }
 { إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ }
 { وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ }

{ وإنهم ليصدونهم } وإن الشياطين يصدون قرناءهم عن طريق الوحدة وسبيل الحق { ويحسبون } الهداية فيما هم عليه { حتى إذا جاءنا } أي: حضر عقابنا اللازم لاعتقاده وأعماله والعذاب المستحق لمذهبه ودينه تمنى غاية البعد بينه وبين شيطانه الذي أضله عن الحق وزين له ما وقع بسببه في العذاب واستوحش من قرينه واستذمه لعدم الوصلة الطبيعية أو انقطاع الأسباب بينهما بفساد الآلات البدنية، { وَلَنْ يَنْفَعَكُم } التمني وقت حلول العذاب واستحقاق العقاب إذ ثبت وصح ظلمكم لاشتراككم في سببه، أو: ولن ينفَعكم كونكم مشتركين في العذاب من شدته وإيلامه.

{ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ }

{ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ }

{ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ }

{ وَلأَبِين لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا }

{ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ }

{ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ }

{ وإنه لعلم للساعة } أي: أن عيسى عليه السلام مما يعلم به القيامة الكبرى

وذلك أن نزوله من أشراط الساعة. قيل في الحديث:

« ينزل على ثنية من الأرض المقدسة اسمها أفيق وبيده حربة يقتل بها

الرجال ويكسر الصليب ويهدم البيع والكنائس ويدخل بيت المقدس

والناس في صلاة الصبح، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلي

خلفه على دين محمد صلى الله عليه وسلم »

فالثنية المسماة أفيق إشارة إلى مظهره الذي يتجسد فيه، والأرض المقدسة

إلى المادة الطاهرة التي يتكون منها جسده، والحربة إشارة إلى صورة القدرة

والشوكة التي تظهر فيها، وقتل الرجال بها إشارة إلى غلبته على المتغلب

المضلل الذي يخرج هو في زمانه .

وكسر الصليب وهدم البيع والكنائس إشارة إلى رفعه للأديان المختلفة. ودخوله بيت المقدس إشارة إلى وصوله إلى مقام الولاية الذاتية في الحضرة الإلهية الذي هو مقام القطب. وكون الناس في صلاة الصبح إشارة إلى اتفاق المحمدين على الاستقامة في التوحيد عند طلوع صبح يوم القيامة الكبرى بظهور نور شمس الوحدة. وتأخر الإمام إشارة إلى شعور القائم بالدين المحمدي في وقته بتقدمه على الكل في الرتبة لمكان قطبته وتقديم عيسى عليه السلام إياه واقتداؤه به على الشريعة المحمدية إشارة إلى متابعتهم للملة المصطفوية وعدم تغييره للشرائع وإن كان يعلمهم التوحيد العياني ويعرفهم أحوال القيامة الكبرى وطلوع الوجه الباقي، هذا إذا كان المهدي عيسى ابن مريم على ما روي في الحديث:

« لا مهدي إلا عيسى ابن مريم » ،

وإن كان المهدي غيره فدخوله بيت المقدس: وصوله إلى محل المشاهدة دون مقام القطب والإمام الذي يتأخر هو المهدي، وإنما يتأخر مع كونه قطب الوقت مراعاة لأدب صاحب الولاية مع صاحب النبوة، وتقديم عيسى عليه السلام إياه لعلمه بتقدمه في نفس الأمر لمكان قطبته وصلاته خلفه على الشريعة المحمدية اقتداؤه به تحقيقاً للاستفاضة منه ظاهراً وباطناً والله أعلم.

وإنما قال: { واتبعون هذا صراط مستقيم } لأن الطريقة المحمدية هي صراط الله لكونه باقياً به بعد الفناء فدين الله وصراطه صراط الله واتباعه اتباع الله، فلا فرق بين قوله: { وَأَتَّبِعُونَ } ، وقوله: واتبعوا رسولي، ولهذا كان متابعتهم تورث محبة الله إذ طريقه هي طريق الوحدة الحقيقية التي لا استقامة إلا لها ولهذا لم يسع عيسى إلا اتباعه عند الوصول إلى الوحدة وارتفاع الاثنينية يوجب المحبة الحقيقية.

{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ }

{ الْأَخْلَاءُ يُؤْمِنُ بِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَّقِينَ }

{ يُعْبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ }

{ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ }

{ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ }

{ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهُهِ الْأَنفُسُ
وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

{ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم } أي: ظهور المهدي دفعة وهم غافلون عنه { الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين } الخلة، إما أن تكون خيرية أو لا، والخيرية إما أن تكون في الله أو لله، والغير الخيرية إما أن يكون سببها اللذة النفسانية أو النفع العقلي. والقسم الأول هو المحبة الروحانية الذاتية المستندة إلى تناسب الأرواح في الأزل لقربها من الحضرة الأحدية وتساويها في الحضرة الواحدية التي قال فيها: فما تعارف منها ائتلف، فهم إذا برزوا في هذه النشأة واشتاقوا إلى أوطانهم في القرب وتوجهوا إلى الحق وتجردوا عن ملابس الحس ومواد الرجز، فلما تلاقوا تعارفوا وإذا تعارفوا تحابوا لتجانسهم الأصلي وتمثالهم الوضعي وتوافقهم في الوجه والطريقة، وتشابههم في السيرة والغريزة وتجردهم عن الأغراض الفاسدة والأعراض الذاتية التي هي سبب العداوة، وانتفع كل منهم بالآخر في سلوكه وعرفانه وتذكره لأوطانه والتدبُّ بلقائه وتصقَّى بصفائه وتعاونوا في أمور الدنيا والآخرة فهي الخلة التامة الحقيقية التي لا تزول أبداً كمحبة الأولياء والأنبياء والأصفياء والشهداء. والقسم الثاني هو المحبة القلبية المستندة إلى تناسب الأوصاف والأخلاق والسير الفاضلة، ونشأته في الاعتقادات والأعمال الصالحة كمحبة الصلحاء والأبرار فيما بينهم ومحبة العرفاء والأولياء إياهم، ومحبة الأنبياء العامة أمهم.

والقسم الثالث هو المحبة النفسانية المستندة إلى اللذات الحسية والأغراض الجزئية كمحبة الأزواج لمجرد الشهوة ومحبة الفجار والفساق المتعاونين في اكتساب الشهوات واجتلاب الأموال. والقسم الرابع هو المحبة العقلية المستندة إلى تسهيل أسباب المعاش وتيسير المصالح الدنيوية كمحبة التجار والصناع ومحبة المحسن إليه للمحسن، فكل ما استند إلى غرض فإن سبب زائل بزواله وانقلب عند فقدانه عداوة لتوقع كل من المتحابين ما اعتاد من صاحبه من اللذة المعهودة والنفع المألوف مع عدمه وامتناعه لزوال سببه، ولما كان الغالب على أهل العلم أحد القسمين الأخيرين أطلق الكلام وقال:

{ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين } لانقطاع أسباب الوصلة بينهم وانتفاء الآلات البدنية عنهم وامتناع حصول اللذة الحسية والنفع الجسماني وانقلابهما حشرات وآلاماً وضرراً وخسراً قد زالت اللذات والشهوات وبقيت العقوبات والتبعات، فكل يحق صاحبه ويغضه لأنه يرى ما به من العذاب منه وبسببه. ثم استثنى المتقين المتناولين للقسمين الباقيين لقلتهم كما قال:

{ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ } [ص، الآية: ٢٤]،

{ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } [سبأ، الآية: ١٣].

ولعمري إن القسم الأول أعز من الكبريت الأحمر وهم الكاملون في التقوى البالغون إلى نهايتها، الفائزون بجميع مراتبها، اجتنبوا أولاً المعاصي ثم الفضول ثم الأفعال ثم الصفات ثم الذوات، فما بقيت منهم بقايا حتى يتنافسوا فيها ويضنوا بها عن حبيبهم فيفسد محبتهم، بل ما بقي منهم إلا نفس الحب. وأما الفريق الثاني فاقترضوا على الرتبة الأولى وقنعوا بظاهر التقوى فرضوا من الآخرة بما أوتوا من النعيم وتسلاوا عن الدنيا وما فيها بالفضل الجسيم فأبقى محباتهم فيما بينهم لبقاء أسبابها وهي الصفات المتماثلة والهيئات المتشابهة في ابتغاء مرضاة الله وطلب ثوابه واجتناب سخط الله وعقابه، فهم العباد المرتضون أي كلا القسمين لاشتراكهما في طلب الرضا فلذلك نسبهم إلى نفسه بقوله:

يا عباد لا خوف على الفريقين لأنهم من العقاب ولا هم يحزنون على فوات لذات الدنيا لكونهم على ألد منها وأبهج وأحسن حالاً وأجمل، وإن تفاوت حالهم في اللذة والسرور والروح والحبور بما لا يتناهى، وشتان بين محمد ومحمد.

{ وَتِلْكَ الْأَجِنَّةُ الَّتِي أُوْرَثُوهَا مِمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

{ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ }

{ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ }

{ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ }

{ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ }

{ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كَاتِبُونَ }

{ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ }

{ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ }

{ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ }

والجنة التي أمروا بدخولها هي جنة النفس لاشتراك الفريقين فيها دون جنتي الصفات والذات المخصوصتين بالسابقين بدليل قوله بعده:

{ وتلك الجنة التي أورتهموها بما كنتم تعلمون } وإما الجنة التي هي ثواب الأعمال جنة النفس لقوله: { وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين }.
{ ونادوا يا مالك } سمي خازن النار مالكا لاختصاصه بمن ملك الدنيا وأثرها لقوله تعالى:

{ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ }

[النازعات، الآيات: ٣٧ - ٣٩] كما سمي خازن الجنة رضواناً لاختصاصه بمن رضي الله عنهم ورضوا عنه. وقيل: الرضا بالقضاء باب الله الأعظم وهو الطبيعة الجسمانية الموكلة بأجساد العالم والهيولى الظلمانية أو النفس الحيوانية الكلية الموكلة بالتأثير في الأجساد الحيوانية المستعلية على النفوس الناطقة المحبوسة في قيود اللذات الحسية والمطالب السفلية، وإنما لا يتعذب بالنار لكونه من جوهر تلك النار فهي له جنة، وللهنميين نار لتنافي جواهرهم وجوهرها وتباينهما. واختصاص نذائهم بمالك دون الله تعالى لاحتجابهم وبعدهم عن الله بالكلية وتعبدهم لمالك بالنية والأمنية، وما ذلك النداء إلا توجههم إليه وطلب المراد منه ودعوتهم بقولهم: { ليقض علينا ربك } إشارة إلى تمني زوال بقية الاستعداد بالكلية وإماتة الغريزة الفطرية لئلا يتأذوا بالهيات المؤذية والنيران المردية، أو تمني تعطل الحواس وعدم الإحساس لشدة التألم بالعذاب الجسماني و { قال إنكم ماكنون } إشارة إلى المكث المقدر بحسب رسوخ الهيات وارتكाम الذنوب والآثام إن كانت الاستعدادات باقية والاعتقادات صحيحة أو الخلود فيها إن لم تكن، فإن المكث أعم من المتناهي وغيره.

وكذا المجرم أعم من الشقي الأصلي وغيره، وعلى هذا حمل الخلود في قوله:

{ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ } {الزخرف، الآية: ٧٤}

على المكث الطويل الأعم من المتناهي وغيره، فإنه قد يستعمل في العرف بمعناه كثيراً مجازاً، وإنما جعلنا المجرم شاملاً للقسمين المذكورين من الأشقياء لمقابلته للمتقي الشامل للقسمين المذكورين من السعداء وإن خصناه بالشقي المرود المطرود في الأزل كان المكث في قوله: { إنكم ماكنون } عبارة عن الأبد.

{ بلى ورسلنا لديهم يكتبون } كل ما خطر فينا بالبال من الأشرار ينتقش في النفوس الفلكية كما ينتقش في الإنسانية لاتصالها بها وانتقاشها كما هي، إما في القوى الخيالية إن كانت جزئية وإما في القوى العاقلة إن كانت كلية، وكلاهما يظهر على النفس عند ذهولها عن الحسّ ورجوعها إلى ذاتها وما كانت تنساها تنعكس إليها من النفوس الفلكية عند المفارقة فتذكرها دفعة وذلك معنى قوله:

{ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ } {المجادلة، الآية: 6}

فالرسل الكاتبون هم النفوس الفلكية المناسبة لكل واحد واحد من الأشخاص البشرية بحسب الوضع المقارن لاتصال النفس بالبدن.

{ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدًّا فَأَنَا أَوْلُ الْعَابِدِينَ }

{ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ }

{ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ }

{ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ }

{ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ }

{ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }

{ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ }

{ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ }

{ وَقِيلَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ }

{ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }

{ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدًّا فَأَنَا أَوْلُ الْعَابِدِينَ } أي: لذلك الولد، وهو إما أن يدل

على نفي الولد عن الله بالبرهان وإما ان يدل على نفي الشرك عن الرسول بالمفهوم، أما دلالاته على الأول فلما دلّ قوله: { سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ } إلى قوله: { عَمَّا يَصِفُونَ } على نفي التالي وهو عبادة الولد أي: أو حده وأنزّهه تعالى عما يصفونه من كونه مماثلاً لشيء ربّاً خالقاً للأجسام كلها فلا يكون من جنسها، فيفيد انتقاء الولد على الطريق البرهاني.

وأما دلالاته على الثاني: فإذا جعل قوله: { سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ } إلى آخره، من كلام الله تعالى لا من كلام الرسول، أي: نزهه ربّ السموات عما يصفونه فيكون نفيّاً للمقدّم ويكون تعليق عبادة الرسول من باب التعليق بالمحال والمعلق بالشرط عند عدمه فحوى بدلالة المفهوم أبلغ عند علماء البيان من دلالة المنطوق، كما قال في استبعاد الرؤية:

{ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي } { الأعراف، الآية: ١٤٣ } والله تعالى أعلم.